من التراث اللغوى

النحو العربى بين الإشارة والعبارة

مع

تحقيق كتاب ("نحو القلوب) للأستاذ الإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى النيسابورى

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

عرف النحو بتعريفات مختلفة فهو :

١ ـ العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب ، الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التى ائتلف منها[1] ، (قال صاحب المقرب : فعلم أن المراد بالنحو مايرادف قولنا (علم العربية) لاقسيم الصرف .

وجاء فى الصبان تعليقاً على « لاقسيم الصرف » هذا اصطلاح القدماء .واصطلاح المتأخرين تخصيصه بفن الإعراب والبناء وجعله قسيم الصرف .

٢ ـ علم بأصول مستنبطة من كلام العرب يعرف بها أحكام الكلمات العربية حال إفرادها وحال تركيبها وما يتبعها[2] .

٣ ـ انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره : كالتثنية والجمع ، والتحقير والتكثير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك[3] .

٤ ـ علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلمات العربية إعراباً وبناء[4] . ومن التعريفات السابقة وغيرها نرى أن النحاة يختلفون فى تحديد دائرة النحو : فمنهم من يجعلها تشمل أساليب اللغة من جميع نواحيها ، ومنهم من يقصرها على ضبط

(١) اشمونى ١/١٥ فما بعدها .

(٢) حاشيه الخضرى على ابن عقيل ١/١٦

(٣) الخصائص ١/٣٤ .

(٤) حاشية الصبان على الأشمونى عند تعريف النحو .

أواخر الكلمات ومعرفة بنيتها واشتقاقها ، ومنهم من يرى أن دائرة النحو يجب أن تكون أوسع من البحث فى الإعراب وضبط أواخر الكلمات فتشمل الجملة من حيث أسرار الجمال التى تكمن وراء نظم كلماتها ، وترتيبها الذى يقتضيه علم النحو ، وأن معانى النحو تمثل العلاقات بين معانى الكلم فى النفس وإليها يستند ترتيب هذه المعانى [1] .

ولا نريد من عرض هذه التعريفات للنحو أن نناقشها أو ننتقص من قدر النحو ، ولكننا نريد أن نصل من ذلك إلى أمرين أولهما : أن النحو بهذه التعريفات السابقة يمثل البناء الكبير وهو إذن خلاصة البحث اللغوى فى جميع مستوياته . وثانيهما : أن النحو بالمضمون السابق يدور حول (العبارة) من حيث تقديم بعض أجزائها أو تأخيره أو تعريفه أو تنكيره أو حذفه أو ذكره أو إثباته أو نفيه أو تغير أواخر الكلمة المفردة لتغير العوامل الداخلة عليها ، وفى أثناء دراستهم هذه نرى نموذجاً من الخلاف بينهم والجدل والنزاع الذى يتمثل فى كل خطواتهم حتى كثّروا من احتمال أوجه الإعراب وتقديره وصوره من غير أن يشير إلى تصوير المعنى . وحسبنا هذا النموذج على سبيل المثال لا الحصر :

(ا) ماذكره الأشمونى فى الصفة المشبهة من أن لمعمولها ثلاث حالات : الرفع على الفاعلية ، والنصب على التشبيه بالمفعول به ، والخفض بالإضافة ، والصفة مع كل من الثلاثة : إما نكرة أو معرفة وهذه الستة فى أحوال السببى وهو اثنا عشر نوعاً . فتلك اثنتان وسبعون صورة [2] ويضم إليها ثلاث صور فتصير الصور خمسا وسبعين ، والصفة إما مفردة أو مثناة أو مجموعة جمع سلامة أو تكسير مذكرة أو مؤنثة فإذا ضربت الثمانى فى خمس وسبعين صارت ستمائة ، والصفة أيضاً إما مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة فإذا ضربت الثلاث فى ستمائة صارت ألفاً وثمانمائة . ومعمول الصفة إما مفرد أو مثنى أو مجموع جمع سلامة أو تكسير مذكر أو مؤنث فإذا ضربت الثمانى فى الألف وثمانمائة

---

(١) أنظر بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : ٢٥٢ د . إبراهيم سلامة ، الأنجلو المصرية .

(٢) أنظر حاشية الصبان على الأشمونى فى الصفة المشبهة .

صارت أربعة عشر ألفاً وأربعمائة ، تسقط منها مائة وأربعة وأربعون من صور المعمول الضمير . . . . . فالباقى أربعة عشر ألفاً ومائتان وستة وخمسون بعضها جائز وبعضها ممتنع ، فالدرس كما ترى قائم على المنهج الشكلى والجفاف العلمى من تقسيم الأنواع .

(ب) روى أن عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو البويهى سأل الإمام أبا على الفارسى : بماذا ينصب الاسم المستثنى فى نحو قام القوم إلا زيدا ؟ قال بتقدير أستثنى زيدا ، فقال له عضد الدولة – وكان فاضلا – لم قدرت « أستثنى زيد ا فنصبت ؟ وهلا قدرت امتنع زيد ... فرفعت ! فقال له أبو علىّ : هذا الجواب الذى ذكرته لك جواب مَيْدانى وإذا رجعت ذكرت لك الجواب الصحيح [1] . وذهب البصريون إلى أن العامل الفعل المقدم بتوسط (إلاَّ) وذلك لأن هذا الفعل وإن كان لازماً فى الأصل إلا أنه قوى ب (إلاَّ) فتعدى إلى المستثنى . وذهب الفراء من الكوفيين إلى أن (إلاَّ) مركبة من (إنَّ ولا) ثم خففت (إنَّ) وأدغمت فى (لا) فهى تنصب فى الإيجاب إعتباراً ب (إنَّ) وترفع فى النفى إعتباراً ب (لا) [2] .

(ج) ومن ذلك ما رواه أبو العباس أحمد بن يحيى قال : اجتمع الكسائى والأصمعى عند الرشيد وكانا معه يقيمان ويظعنان بظعنه فأنشد الكسائى :

أبلغ حُبيباً وخلل فى سراتهم
أن الفؤاد انطوى منهم على حزن

إلى أن قال :

أم كيف ينفع ما تعطى العَلوقُ به
رئمانَ أنف إذا ما ضُنّ باللبن [3]

فقال الأصمعى رئمان : بالرفع فقال له الكسائى أسكت ما أنت وهذا يجوز رئمانُ ورئمانَ ورئمانِ !

والمعنى : وما ينفعنى إذا وعدتنى بلسانك ثم لم تصدقه بفعلك فمثلك كالناقة إذا نحر عنها ولدها وحشى تبنا فهى تشمه

(١) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ص ٣١٦ ط تحقيق أبى الفضل . نهضة مصر .
(٢) انظر أسرار العربية لابن الأنبارى ص ٢٠١ فما بعدها . (٣) الأشباه والنظائر ٣/٢٤٤

بأنفها ثم تأباه بقلبها . فكما ترى تقدير كلمات مصنوعة ليصح بها الإعراب الذى سلك عليهم أمرهم ومن هنا آثرنا تسميتهم ب (أهل العبارة) أو (أهل الظاهر) لأن عملهم لايتعدى الشكل والسير حول محيط الدائرة أو قريباً منها . وهيهات أن يصلوا إلى مركز الدائرة أونقطة النبع ، وإذا كنا وجدنا على هذا الجانب (أهل العبارة) فإننا نرى على الجانب الآخر (أهل الإشارة)

« بين الإشارة والعبارة »

والإشارة: ترجمان لما يقع فى القلوب من تجليات ومشاهدات ، وتلويح لما يفيض به الله على من اصطفاه من خلقه من أسرار وفيوضات . وإذا كان المصطلح لأهل النحو الظاهرى (العبارة) فإن المصطلح لأهل النحو الباطنى (الإشارة) ولكل وجهته . والنحو الظاهرى أو نحو العبارة (لغته العقل) وتدرك بالألفاظ والكلمات وأما النحو الباطنى أونحو (الإشارة) فلغته (القلب) وتدرك بالذوق والإلهام والفيض ، ولايمكن نقل ذلك عن طريق العبارة ، ولهذا رمزوا لها وأشاروا . والعبرة عند أهل (الإشارة) بحقائق الأرواح لا بمظاهر الأشباح . يعنيهم الجوهر أكثر مما يعنيهم المظهر . وفى الخبر: من عمل بما علمه ورّثه الله علم ما لم يعلم[1] . ويوضح أبو نصر السّراج هذا العلم الموروث بأنه (علم الإشارة) حيث يكشف الله سبحانه وتعالى لقلوب أصفيائه المعانى المذخورة ، واللطائف والأسرار المخزونة[2] .

وأسلوب أهل الإشارة يقوم على الإيماء والرمز وسرعة الالتقاط . كما أن كلماتهم محملة بالشحنات النفسية لتتواءم مع الموقف الذى هم عليه ؛ ولهذا كان لهم فهم وتذوق قلبى يختلف عن لغة (العقل) ولهذا عندما نظر الرسول ـ وحوله أصحابه إلى أبى بكر قائلا له : (أتذكر يوم لايوم ؟) فلم يفهم أصحابه ـ مايريد ولكن أبابكر أجاب بقوله (نعم) ولما سئل الصديق عن ذلك قال: إنه يوم الميثاق[3] وقد يستطيع الإنسان أحياناً أن يجد تعبيراً يكشف به سرّ الإشارة ولغتها . خذ مثلا قول القشيرى: « فالله تعالى أرشد نفوس الزاهدين إلى طريق طاعته ، وقلوب العارفين إلى سبيل معرفته ، وأرواح الواجدين إلى حقيقة محبته ، وأسرار الموحدين إلى تطلع[4] قربته » فقد

(١) أورده أبو نعيم فى حلية الأولياء عن أنس بن مالك . (٢) اللمع ١٤٧
(٣) لطائف الإشارات ص ٧ من المقدمة للأستاذ حسن عباس زكى .
(٤) التحبير فى التذكير : تحقيق د . إبراهيم بسيونى ص٩٥

استطاع الدكتور إبراهيم بسيونى أن يعرى قشرة هذا النص حتى شف عن حقيقته فقال «وهذا النص يشير إلى رأى القشيرى فى مراتب أهل الحق : زاهد ثم عارف ثم واجد ثم موحد، ويشير ثانياً إلى ملكاتهم الباطنية : نفس ثم قلب ثم روح ثم سرٌّ ويشير ثالثاً إلى غاياتهم فى كل مرحلة من مراحل معراجهم الروحى : طاعة فمعرفة فمحبة فقرب»[1] .

ولو نظر إنسان ما إلى نص القشيرى السابق ما استطاع أن يفهم شيئاً غير عادى فى النص لأن أسلوبه يسير ، ومعناه أيسر، ولكن الصوفى له تأملات تحمّله أدواراً باهظة فى تعقُّب كل لفظة حيث يطيل التأمل فيها وما حملت من مذاقات وشحنات بل فى تعقب كل حرف وحركة ونقطة فمن ذلك قول الشِّبلى ت ٣٣٤ هـ «أنا النقطة التى تحت الباء» البسملة ص ١٠٩ دكتور إبراهيم بسيونى .

وإذا استطاع الإنسان أن يكشف عن سر الإشارة أحياناً فإنه فى كثير من الأوقات لايستطيع ذلك ؛ لأن الإشارة الصوفية فوق أسلوب الشفرة[2] فلاتدرك باللمح والحسّ ، وإنما تدرك بالمجاهدات والفيوضات ، كما تقوم الإشارة على قفزات ونقلات روحية وهيهات أن يدرك العقل أسرارها أو يعبّر الفكر عنها إلا مكدوراً لاهثا ؛ لأن (العبارة) ليس فى طاقتها أن تتتبع أسرار (الإشارة) . على أنه لاتعارض بين العبارة والإشارة فهما يتكاملان ويتضافران فما قامت علوم الظاهر إلا لنصرة الشريعة والحقيقة فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده .

ومن هنا كان لدى أهل الإشارة حصيلة كبيرة من المعارف اللغوية والنحوية والإنسانية وغيرها فهم يعتمدون على العبارة أولًا ثم يبدأون فى رحلة أُخرى تقوم على الرياضات والمجاهدات والمذاقات والكشوفات التى تنثال من الحق على عباده الذين اصطفاهم فلابد إذن من علم الظاهر قبل الانطلاق إلى علم الباطن ؛ ولهذا فقد ألف القشيرى تفسيره الكبير المعروف (بالتيسير فى التفسير) قبل عام ٤١٠ هـ وهو نتاج الدراسة العقلية واللغوية حيث يعنى بالجانب التقليدى : من لغة ونحو وأخبار وقصص وغيرها ، فلما سلك الطريق الصوفى والتقى بشيخه الدقاق ألف تفسيره المعروف (بلطائف الإشارات ٤٣٤ هـ وهذا التفسير الأخير نتاج الفيوضات والإلهامات والمذاقات يتتبع

---

(١) التحبير ، المرجع السابق .

(٢) لعل كلمة (الشفرة) هى (الجفر) لفظاً ومدلولا وهو عند الشيعة علم قائم على رموز وأرقام . أنظر مقدمة ابن خلدون .

فيه الإشارات لا العبارات ، ولا يتوقف عند حدود المفردات والألفاظ بل يذهب إلى ماوراء العبارة . جاء فى طبقات الشعرانى ١٤٧/١ لسيدى إبراهيم الدسوقى « للعارفين من إشارات العبارات عبارات معجمة وألسنٌ مختلفة »فتفسيره (التيسير) يدركه العوام والمثقف العبارى ، أما تفسيره (اللطائف) فلا يصل إليه إلا الخواص ولهذا قالوا : العبارات للعموم والرموز والإشارات للخصوص ولذلك كان علم العبارة من مقومات الثقافة العامة وعلم الإشارة من مقومات الثقافة الخاصة . وللقشيرى فهم خاص غير فهم أصحاب العبارة يتجلَّى : فى التفسير واللغة والفقه والنحو والأصوات والمصطلحات والتذوق وفن الرسم والكتابة وآن لنا أن نوضِّح جانباً من هذه القضايا .

(ا) فى التفسير :

١ - فى قوله تعالى : « ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) الإشارة من قوله : ويحذركم الله نفسه » للعارفين ومن قوله « والله رءوف بالعباد » للمستأنفين فهؤلاء أصحاب العنف والعنوة ، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة . ويقال أفناهم بقوله « ويحذركم الله نفسه » ثم أحياهم وأبقاهم بقوله « والله رءوف بالعباد ».

٢ - وفى قوله جل ذكره « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . . . » . (تحبون الله) فرق ، و (يحببكم الله » جمع . « تحبون الله » مشوب بالعلة و « يحببكم الله » بلا علة ، بل هو حقيقة الوصلة . ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية ، وتقتضى منه تلك الحالة إيثاره سبحانه - على كل شىء وعلى كل أحد . وشرط المحبة ألا يكون فيها حظٌّ بحال ، فمَنْ لم يفْنَ عن حظوظه بالكلية فليس له من المحبّة شظية . ومحبّة الحق للعبد إرادته إحسانَه ولطفَه به ، وهى إرادة فضل مخصوص ، وتكون بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له ، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه . فعلى هذا تكون من صفات فعله . ويقال: شرط المحبة ، امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك فى محبوبك قال قائلهم :

وما الحبُّ حتى تنزف العين بالبكا
وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا فرق بين الحبيب والخليل (محمد صلى الله عليه وسلم وإبراهيم عليه السلام) قال الخليل « فمن تبعنى فإنه منّى » وقال الحبيب

« فاتّبعونى يحببكم الله » فإن كان متّبعُ الخليل (منه) إفضالا فإن متابع الحبيب محبوبُ الحق سبحانه وكفى بذلك قربة وحالا . . . ويقال فى هذه الآية إلى أن المحبّة غيرَ محاولة وليست باجتلاب طاعة ، أو التجرد عن آفة ، لأنه قال يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، بين أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة ثم يحبُّ اللهَ ويحبُّه اللهُ . ويقال قال أولا : « يحببكم الله » ثم قال « ويغفر لكم ذنوبكم » والواو تقتضى الترتيب ليُعلم أن المحبة سابقة على الغفران ؛ أولًا يحبّهم ويحبونه (وبعده) يغفر لهم ويستغفرونه ، فالمحبة توجب الغفران ؛ لأن العفو يوجب المحبة . والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حبب الأسنان وهو صفاؤها . والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب فى السرّ ، والحب حرفان حاءٌ وباءٌ والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البدن فالمحب لايدخر عن محبوبه لاقلبَهُ ولا بَدَنَه[1] .

٣- ولم تكن بسملة السورة كياناً مستقلا قائماً بذاته عن السورة كما فى تفسير أهل العبارة بل كانت البسملة عند القشيرى فى أول كل سورة خلاصة مركزة لحديث طويل يتواكب مع النسيج العام داخل السورة وكأن بين البسملة وبين السورة رحماً فى المعنى وثيقة، ومسالك دقيقة ولم يكن مردّ هذا إلى معرفة القشيرى باللغة والنحو ، والاشتقاق والبلاغة فحسب ، وإنما كان مرجعه إلى صفاء روحه ، ودقة حسه ، ورقة شعوره ، ورهافة سريرته ، وبعد تأملاته ، وعمق رياضاته ومجاهداته . كما اعتمدت هذه النظرة الفذة من القشيرى على أنه لايؤمن بالتكرار فى القرآن فحين تأتى البسملة فى أول كل سورة فإنما تأتى لمعنى جديد ، ومرمى سديد يتفق مع السياق العام لمضمون ماتحتويه السورة وإليك بعض النماذج :

ففى سورة الأنبياء يكشف عن معنى البسملة فى أول السورة بقوله : بسم الله إسم عزيز مَن توسّل إليه بطاعته تفضّل عليه بجميل نعمته ؛ إنْ أطاع فضّله ، وإن أضاع أمهله ، ثم إن آب وأقر ... ذَكَرَهُ ، وإن عصى وعاب ستره ، ثم يقول : اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلا بآثار توفيقه ، وما استضاءت السرائر إلا بأنوار تحقيقه ، بتوفيقه وصل العابدون إلى مجاهدتهم ، وبتحقيقه وجد العارفون

(١) لطائف الإشارات للقشيرى ١ / ٢٤٦-٢٤٨

كمال مشاهدتهم[1] . . . . . فالترابط وثيق بين إشارات البسملة وبين مشاهد السورة فى الداخل حيث اختلف الناس بين مؤمن وكافر، ومصدق ومكذب حول رسالة الأنبياء – وتراه فى سورة الجن يكشف عن بسملتها بقوله «بسم الله اسم عزيز به أقر من أقرّ بربوبيته، وبه أصرّ من أصرّ على معرفته، وبه استقر من استقر من خليقته، وبه ظهر ماظهر من مقدوراته، وبه بطن مابطن من مخلوقاته، فمن جحد فبخذلانه، وحرمانه، ومن وحد فبإحسانه وإمتنانه[2] .

فالترابط واضح بين إطار السورة المتجسد فى البسملة وبين جزئيات السورة فى الداخل، لاحظ قوله : ظهر ماظهر وبطن ما بطن وربطه (بالجن) وبقوله فى السورة : عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . وفى بسملة (المنافقون) يقول (بسم الله) اسم من تحقق به صدق فى أقواله ثم صدق فى أعماله ثم صدق فى أخلاقه ثم صدق فى أحواله ثم صدق فى أنفاسه . . . . يقول القشيرى فى قوله تعالى « والحافظون لحدود الله» هم الذين يحفظون مع الله أنفاسهم[3] ، ومرعاة (الأنفاس) من الأمور التى شغلت الصوفية يقول الجنيد :

وماتنفستُ إلا كنت مع نفسى
تجرى بك الروح منى فى مجاريها

فصدقه فى القول ألا يقول إلا عن برهان ، وصدقه فى العمل ألا يكون للبدعة عليه سلطان ، وصدقه فى الأخلاق ألايلاحظ إحسانه مع الكافة بعين النقصان وصدقه فى الأحوال أن يكون على كشف برهان ، وصدقه فى الأنفاس ألايتنفس إلاعلى وجود كالعيان[4] والترابط وثيق بين البسملة وبين المشهد العام للسورة كما ترى. فكل بسملة فى القرآن الكريم لها معنى جديد يتواكب مع المعنى العام للسورة[5] .

(ب) فى الفقه :

١ – فى قوله تعالى «ويقيمون الصلاة» وأما إقامة الصلاة والقيام بأركانهاوسننها ثم الغيبة عن شهودها برؤية مَنْ يُصَلِّى له فيحفظ عليه أحكام الأمر بما يجرى عليه منه ، وهو عن ملاحظتها محو ، فنفوسهم

(١) لطائف الإشارات ٤ / ١٦٣) .
(٢) اللطائف ٦ / ٢٠٥ .
(٣) اللطائف ٣ / ٦٨ .
(٤) اللطائف ٦ / ١٥٥
(٥) أنظر ٦ / ٣٤١ ، ٣٣٠ ، ٥ / ٣٤١ وأنظر سورة الحجر ، ويوسف وبراءة .

مستقبلة القبلة وقلوبهم مستغرقة فى حقائق الوصلة :

أرانى إذا صليت يممت نحوها
بوجهى وإن كان المصلّى ورائيا

أصلى فلا أدرى إذا ماقضيتها
أثنتين صليت الضحا أم ثمانيا[1]

٢ –وفى قوله جل ذكره « وممارزقناهم ينفقون » على لسان التفسير أنهم ينفقون أموالهم إما نفلا وإما فرضاً على موجب تفصيل العلم . وبيان الإشارة أنهم لايدخرون عن الله سبحانه وتعالى شيئاً من ميسورهم ، فينفقون نفوسهم فى آداب العبودية ، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة المربوبية ، فإنفاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال ، وإنفاق أرباب الحقيقة من حيث الأحوال . . . وأما أهل الحقائق فلو جعلوا من جميع أحوالهم « لأنفسهم ولحظوظهم » لحظةً قامت عليهم القيامة[2] .

٣ –فى قوله جل ذكره « ولله على الناس حج البيت من استطاع » ويقال : الاستطاعة فنون ؛ فمستطيع بنفسه وما له وهو الصحيح السليم ، ومستطيع بغيره وهو الزّمن المعصوب ، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه وهذا نعت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لاتحملها إلا مطايانا . ويقال الحجهو القصد إلى مَنْ تعظمه : فقاصد بنفسه إلى زيارة البيت وقاصد بقلبه إلى شهود رب البيت ، فشتان بين حج وحج ، هؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فرضهم ، وهؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند شهود ربهم . . . فإذا بلغ مِنىً نفى عن قلبه كل طلب ومُنى ، وكل شهوة وهوى ، وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة فى الدنيا والعقبى ، وإذا ذبح ذبح هواه بالكلية . . . . وإذا حلق قطع كل علاقة بقيت له[3] .

---

(١) اللطائف ١ / ٦٨ فما بعدها .

(٢) اللطائف ١ / ٦٩

(٣) اللطائف ١ / ٢٧٥ فما بعدها ، وانظر نظرة القشيرى : للصوم والطهور والغسل والمسح والتيمم فى لطائف الإشارات ٢ / ٩٩ ، ١ / ١٦٥ فما بعدها .

٤ - يرى القشيرى أن المريد لايلجأ للرخص فى العبادات ، والأفضل تركها ؛ لأنها للمستضعفين وأرباب الحوائج والأشغال من الكافة ، والمريد لاحاجة له ولا شغل إلا لربه وبربه[(١)] ويفسر القشيرى قول الله تعالى : (إن الإنسان لفى خسر) بأنه الرجوع إلى الرخص بعد إيثار الأشق والأولى[(٢)] كما يرى القشيرى أن الفقير[(٣)] إذا انحط عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله ونقض عهده ، والقشيرى فى آرائه الفقهية هذه يشير إلى أن الصوفى عليه أن يستبطن ظواهر العبادات ، ويكشف اللثام عن أسرارها بأن تنزه العبادة عن الأطماع والأعواض وما يراه القشيرى جدير بأنه يسمى (بالفقه الصوفى) .

(جـ) فى اللغة :

من خصائص القشيرى أنه لايعترف بالتكرار فكل كلمة فى موقع لها معنى يختلف عن مدلولها فى موقف آخر ؛ لأن التكرار قد يكون آية ضعف فى القائل :

١ - ففى قوله جل ذكره «وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين» يلتمس القشيرى معنى جديدا لكلمة الاصطفاء ، فالأول : اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة والثانى : اصطفاك بأن حملت بعيسى عليه السلام من غير أب[(٤)] ، . . .

٢ - يرى بعض العلماء أن لفظ (الله) مشتق من قولهم (أله) بالمكان أى أقام به ، أو من (لاه) أى علا . أو (لاه) بمعنى احتجب . أو من (الوله) وكأن اسمه يوجب الوله ، والقشيرى لايرى الاشتقاق فى هذا معتمدا على أن (الله) اسم الذات الذى لايصح أن يسمى به أحد من المخلوقين ، وكل اسم من أسمائه يصلح للتخلق به إلا هذا الاسم فإنه للتعلق دون التخلق والقائلون باشتقاقه لابد لهم من مادة يشتق منها هذا الاسم ، والله تنزهت ذاته لم يسبق بمادة ، ومبحث الذات الإلهية عند القشيرى ليس مجرد كلام نظرى جدلى ، كما

---

(١) أنظر اللطائف ١ / ١٦٥ ، ٢ / ٢٦٤ وأنظر التحبير فى التذكير : للقشيرى تحقيق الدكتور إبراهيم بسيونى ٦٦ .

(٢) اللطائف ٦ / ٣٣٣

(٣) معنى الفقير : الصوفى المتجرد .

(٤) لطائف الإشارات ١ / ٢٥٤

ترى ذلك فى مباحث أهل العبارة ، وإنما المقصود أن نتخلق بها على سبيل المجاز فى الاستعْمال ونعمل بما نعلم[1] . فالقشيرى لايتوقف عند حدود الاشتقاق كأهل العبارة ولكنه يلفتنا إلى الجانب السلوكى المترتب على المعرفة .

٣–وفى قوله جل ذكره « وليعفوا وليصفحوا » يقول القشيرى : العفو والصفح بمعنىً فكررهما تأكيدا ، ولكنه يسرع إلى التمييز بينهما فيقول : العفو فى الأفعال ، والصفح فى جنايات القلوب[2] .

٤–كما كان القشيرى لماحاً فى الربط بين المرادات الصوفية وبين صنيع الاشتقاقات اللغوية معتمدا على الفروق الدقيقة فى المادة الواحدة واستنباط دقائقها ورقائقها . اسمعه يقول : والصبر فى حق العباد على ثلاثة أقسام :

أولها – التصبر وهو تكلف الصبر ومقاساة الشدة ، ثم الصبر وهو سهولةُ تحمل مايستقبله من فنون القضاء وصروف البلاء ، ثم بعده : الاصطبار وهو النهاية فى الباب .

ويكون ذلك بأن يألف الصبر فلا يحتمل مشقة ، بل يجد روْحا وراحة كما قيل :

تعودت مسَّ الصبر حتى ألفته
وأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر[3] .

وفى اللطائف ١ / ٣٢١ فى تفسيره لقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » آية ٢٠٠ من سورة آل عمران

يقول : ويقال أول الصبر التصبر ثم الصبر ثم المصابرة ثم الاصطبار وهو نهاية . فزاد هنا (مصطلح) المصابرة ثم يقول « إصبروا على الطاعات وعن المخالفات ، وتصابروا فى ترك الهوى والشهوات وقطع المنى والعلاقات ، ويقال اصبروا بنفوسكم وصابروا بقلوبكم ورابطوا بأسراركم .

(د) الحرف :

الحرف فى ذاته لا يعطى معنى إلا إذا كان رمزا ، والإشارة ليست إلا مرموزا

(١) التحبير فى التذكير مقدمة الناشر د . إبراهيم بسيونى .
(٢) اللطائف ٤ / ٢٧٣ .
(٣) التحبير فى التذكير ٩٥ تحقيق د . إبراهيم بسيونى وأنظر الهامش .

صادرا عن رمز[1] . وقد اشتد الجدل بين الإشاريين والعباريين فى حروف أوائل القرآن[*] ، ولا أريد أن أتعرض لهذا الجدل بينهم إذ هو مسطور فى كتب التفسير فى أوائل السور القرآنية ، ولكن يكفى وضع المعالم الآتية :

١ ـ أن هذه الحروف علم مستور وسر محجوب استأثر الله به .

٢ ـ أن القرآن تحدى بها العرب حيث نزل بهذه الحروف التى يعرفونها .

٣ ـ أوائل السور قسم أقسم الله فيها بنفسه .

٤ ـ أوائل السور أسماء علمية لبعض سور القرآن المفتتحة بها .

٥ ـ أوائل السور تنبيه لكى لا يفوت السامع شىء مما يأتى عليه .

٦ ـ عدّ أوائل السور على حساب الجُمَّل ، فقد روى العز بن عبد السلام أن عليا رضى الله عنه استخرج واقعة معاوية من (حم عسق) والرموز الحرفية والرقمية قد لعبت دورا خطيرا فى الدور الذى قام به العاويون ضد الأمويين ثم ضد العباسيين.

على أن الحروف قد عولجت فى اتجاهات مختلفة أهمها :

١ ـ الاتجاه الصوتى ويتمثل فى دراسة الخليل وسيبويه وابن دريد وابن جنى وغيرهم ، وكانت دراستهم للحروف من حيث أجراسها وصفاتها : من همس وجهر ، ومن شدة ورخاوة ، ومن إطباق وانفتاح ، ومن استعلاء واستفال ، وتقسيم الجهاز الصوتى إلى مدارج يختص كل منها بحرف أو مجموعة من الحروف ، ومايعرض للصوت فى بناء الكلمة من إعلال وإبدال وحذف ونقل.

٢ ـ الاتجاه الترابطى : ويتمثل فى سهل بن هارون صاحب بيت الحكمة أيام المأمون فقد ربط بين الحروف وعددها وبين عدد منازل القمر الثمانية والعشرين كما ربط بين نصف الحروف الذى يدغم مع لام التعريف « وهى الشمسية » ونصفها الذى لا يدغم ، وخلص من ذلك إلى الشبه بين منازل القمر من حيث ظهور نصفها للعيان واختفاء النصف الآخر فى وجه القمر

(١) البسملة ٥٣ د . إبراهيم بسيونى .

(*) لا يفوتنا أن ننوه بالحدث الإسلامى الخطير الذى أثاره شاب مصرى يعيش فى أمريكا ـ وهو د. رشاد خليفة عالم الكيمياء حيث استخدم العقول الألكترونية لأول مرة فى محاولة لتفسير فواتح السور فى القرآن ، وقد قام بتسجيل هذا البحث فى مكتبة الكونجرس تحت رقم ٢٧٣٨٦ بتاريخ ١١ إبريل سنة ١٩٧٢ ، وقد قام بتغذية الجهاز الإلكترونى برقم كل سورة وعدد آياتها ، وعدد كل حرف أبجدى فيها ، وأجرى متوسطات ونسب وعمليات حسابية متداخلة معقدة سجلت بنتائج مذهلة يضيق المقام عن التصدى لها ، ويكفى أن نشير إلى أن الباحث أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن إعجاز القرآن الكريم ليس فى الجانب الأدبى اللغوى أو غيره بقدر ما هو إعجاز حسابى يفوق طاقة الإنس والجن ، ومن خطوات البحث الجريئة أن العقل الإلكترونى قام بـ ٦٣ اكتليون عملية ، يعنى بوضع ٢٧ صفراً على يمين الرقم السابق .

الاخر ، كما ربطوا بين العبادات من زكاة وحج ، وبين الحروف والأرقام .

٣ - الاتجاه الفلسفى ويمثله ابن سينا وابن عربى فى فتوحاته حيث طبق الأول عليها فلسفته فى الخلق وأنواع العوالم والعقول وصارت الحروف عند الثانى موجدة وخالقة لجميع الكائنات التى لا نهاية لها . وقد ربط ابن عربى بين الذوات المخلوقة حاملة لصفاتها الخِلْقية والخُلقية قائمة فى مقاماتها ، وبين الحروف الملفوظة محركة بحركاتها البنيوية والإعرابية صادرة من مخارجها الصوتية المتنوعة فى قوله :

«أوجد سبحانه وتعالى الحركات والحروف والمخارج تنبيها منه سبحانه وتعالى أن الذوات تتميز بالصفات والمقامات ، فجعل الحركات نظير الصفات وجعل الحروف نظير الموصوف وجعل المخارج نظير المقامات والمعارج[(١)]

فابن عربى يقابل بين الجانب الصوتى والجانب الكونى[(٢)] .

٤ - الاتجاه الميثولوجى : ويمثل هذا الاتجاه للحروف وهى عندهم أمة من الأمم تسخر الطبيعة ، وذكر البونى أن عوالم حرف الميم تجمد الثلج وتلقيه فى الشمس لئلا تحرق البشر ، وقد استغل فيما بعد هذا الاتجاه حيث أصبح عقيدة ودينا يتخذ أصوله من قيم الحروف العددية والتصرف فى الأرقام[(٣)] .

٥ - الاتجاه الدلالى : ويتمثل فى إيجاد علاقة بين معنى الحرف وأصله ، كإيجاد علاقة بين حرف (الكاف) ومعناه (المصلح للأمور) - بالأصل كافٍ . وذلك فى قول كثير :

جوادٌ إذا ماجئت تبغى نواله
وكافٍ إذا ما الحرب شُبّ شهابها

على أن كثيرا من الحروف لانستطيع أن نجد بينها وبين معانيها أدنى علاقة ، وإلا فما العلاقة بين حرف (التاء) وبين

(١) الفتوحات لابن عربى ١ / ١٠٥ وأنظر جلال الدين الدوانى فى رسالة (الزوراء) .

(٢) وإذا أردت مزيدا من معارف ابن عربى عن الحروف فأنظر رسالة قيمة - للزميل حامد طاهر مخطوطة بمكتبة كلية دار العلوم .

(٣) أنظر أماكن متفرقة من كتاب الفكر الشيعى والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثانى عشر الهجرى د / كامل الشيبى .

معناه وهو (البقرة التى تحلب دائماً) فى قول مهلهل :

أبى فارس الهيجاء فى كل حومة
وجدك عبد يحلب التاء دائما

أو بين الحاء وبين معناه وهو (المرأة السليطة)[1] .

هذا وقد تلاعب الشعراءُ بهذه الحروف وحملوها معانى عجيبة فى الأعصار المختلفة فالسين هو الرجل الكثير اللحم والشحم ، فى قول العتابى : —

يجود على العفاة بكل منٍّ
إذا ما السّين شح بما يراد

والذال هو عرف الديك فى قول الحارث اليشكرى :

به برص يلوح بحاجبيه
كذال الديك يأْتلق ائتلاقاً

والناقة الهزيلة تشبه حرف النون فى قول ابن الإردخل :

فلا ونداك لم يلحق غبارى
أخو سير أعاد الحرف[2] نونا

ويشبه هذا ماجاء فى السفر الثانى من شروح سقط الزند القسم الرابع[3] لأبى العلاء :

وحرف كنون تحت راءٍ ولم يكن
بدالٍ يؤم الرسم غيّره النقط

٦ — الاتجاه الصوفى : ونعرض أمثلة لحرف (الألف) وحدها من بين أخواتها للاختصار فى بعض إشارات (القشيرى) .

(أ) فى تفسير أول البقرة (الٓمٓ) يقول : والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لاتتصل بحرف فى الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة ، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه ، واستغنائه عن الجميع .

(ب) ويقال : يتذكر العبد المخلص من حالة الألف تَقَدُّسَ الحق سبحانه وتعالى عن التخصص بالمكان

(١) كتاب الحروف للخليل ص ١٥٨ ، ١٥٩ .
(٢) الحرف: الناقة (ديوان ابن الإردخل ٢٦٦ خط بمكتبة دار العلوم (أبو بكر الجزولى) .
(٣) الدار القومية ص ١٦١١ . شبه الناقة فى هزالها وضمورها بحرف النون . تحت راء : تحت رجل يضرب رئتيها: اسم فاعل من رأيته : إذا أصبت رئته ، لم يكن بدال : أى لم يكن رفيقا بها، إسم فاعل من (دلا) ركابه إذا سار سيرا رفيقاً ، والرسم : رسم دار الحبيب، والمراد بالنقط : لقط المطر .

فإن سائر الحروف لها محل من الحلق أو الشفة أو اللسان إلى غيره من المدارج غير الألف فإنها هويته ، لاتضاف إلى محل .

(جـ) ويقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظي بالرتبة العليا . . . وصلح للتخاطب بالحروف المنفردة ... على سنة الأحباب في ستر الحال [1]

(د) وذكر القشيرى فى التحبير ص ٢٤ أن الألف من هذا الإسم يعنى (الله) إشارة إلى الوحدانية واللام الأولى إشارة إلى محو الإشارة ، واللام الثانية إلى محو المحو فى كشف الهاء .

ومعروف لدى العباريين أن الحرف فى حد ذاته لايحمل معنى ، ولكنه عند الإشاريين كالصوفية يحمل معنى كبيراً كما رأيت وكما روى أن النفرى نظر إلى صور الحروف بعين الصوفى فرآها كلها مرضى إلا الألف ويعنى به الله . بل يذهب بعضهم أن (الألف) ماهيتها فى (النقطة) لأنها هى التى أعطت للحروف معنى فالحرف إذا تجرد من النقطة لامعنى ولامفهوم له ، وبعض الحروف يحمل النقطة فى جوهره كالألف والميم وبعضها يحمل النقطة فى مظهره كالباء ، ولهذا كان الشبلى يقول فى حالة (الجمع) : أنا النقطة التى تحت الباء» [2] ويعتبر هذا فهما جديداً للصوفية فى (الكتابة) العربية ، وفى معانى الحروف كما أن لهم ذوقاً خاصاً فى الوصل والقطع والهمز والشكل ، والنصب والرفع وكثير مما لايطلع عليه غيرهم ؛ لأن الصوفية كما جاء فى الرسالة « أهل بيت واحد لايدخل فيهم غيرهم [3] ».

وقد فهم القشيرى من الألف – فى ضوء النصوص السابقة فهما جديداً حيث نقله إلى السلوك الإنسانى والعدل فى التأدب والتخلق بما نعرف من أسرار هذا الحرف

(١) اللطائف : ١ / ٦٥ – ٦٦

(٢) ألف الهمدانى كتابا فى أسرار النقطة .

(٣) ص ١٢٧ .

فى الوجدان الدينى وتلك ميزة يتفرد بها القشيرى فى تآلف الظاهر والباطن وتواكب الحقيقة والشريعة حتى أشكال الكتابة والإملاء فليست المسألة اتجاهات فلسفية أو ميثولوجية فى الحروف – كما رأينا ذلك عند غيره .على أن بعض هذه الاتجاهات فى فهم الحروف قد يتداخل بعضها فى بعض فالحدود ليست حاسمة عند الصوفية ؛ يؤكد ذلك شيخ من شيوخ القشيرى الإمام (أبو بكر بن فورك) حيث يقول : (هو) حرفان هاءٌ وواو ، فالهاءُ تخرج من أقصى الحلق ، وهو آخر المخارج والواو تخرج من الشفة وهو أول المخارج ف (هو) إشارة إلى ابتداء كل حادث منه وانتهاء كل حادث إليه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « هو الأول والآخر[1] » فنصّ ابن فورك تداخل فيه الاتجاه (الصوتى) مع الاتجاه (الكلامى الصوفى) .

(هـ) فى المصطلح :

يركز الصوفى همه فى عمارة الباطن ، ولهذا وجدنا مصطلحات كثيرة عندهم تتصل بهذا الجانب بل يستعير الصوفى نماذج ومصطلحات من شتى الفروع ليعبر بها عن الحقيقة بعد أن يمنح هذه المصطلحات نفساً حاراً وطاقات متجددة تنطلق فى مدارات متعددة ، وقد استنبط القشيرى من المصطلح وهو خلاصة الاستقراء اللغوى إشارات دقيقة تفوق المعنى القاموسى اللغوى ولفها بستار واق حتى لاتشيع فى بيئة أخرى غير بيئتهم معتمدين فى ذلك على سنّة الأحباب فى ستر الحال ، وعلى التركيز واللمح قال ، شاعرهم :

قلت لها قفى فقالت قاف
لاتحسبينا قد نسينا الإيجاف[2]

ولم يقل وقفت ستراً على الرقيب ، ومراعاة لقلب الحبيب ، وهكذا تكثر العبارات للعموم والرموز والإشارات للخصوص . ونظرة خاطفة إلى الرسالة القشيرية تريك بابا (للمصطلحات) غنياً بالألوان ، والمذاقات ، والمجاهدات والأحوال وحسبها أنها تعبر عن مواقف نفسية وروحية وكشفية كما توضح مراحل الحب والفناء والشهود والتواجد والوجد ، والوجود والغيبة والحضور،والمحو والإثبات[3] .

(١) كتاب التحبير فى التذكير ٢٥ تحقيق د/إبراهيم بسيونى .
(٢) شواهد الشافية ٤ / ٢٧١ .
(٣) والقرب والبعد والإفصاح والكتمان والسر وسر السر ، والتخلق والتحقق .

هذا . ولما كان التصوف رحلة شاقة مشحونة بالصراع كان على المصطلح الصوفى أن يغطى مراحل هذه الرحلة المثيرة من منطقة فوق الوعى والإدراك ، فيطالعك القشيرى بفروق دقيقة ؟

١ – بين (النعمة) على لسان العلماء وهى : لذة خالصة عن الشوائب ، وعند أهل الحقيقة ، ما أشهدك المنعم أوماذكرك بالمنعم أو ماأوصلك إلى المنعم أومالم يحجبك عن المنعم (١) .

٢ – وفى اللطائف ١/١٢٣ عند تفسيره لقوله تعالى « ماننسخ من آية ... » يقول : فلا ننسخ من آثار العبادة شيئاً إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية ، ولاننسخنا من أنوار العبودية أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أقمار العبودة (٢) .

والنص يفيض بمصطلحات القشيرى : فالعبادة للعوام والعبودية للخواص والعبودة لخواص الخواص وهى صفة أهل المشاهدات . ولما كان القشيرى كثيراً ما يعتمد فى مصطلحه على مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والجبال والبحار والسحب – أمكن وضع المصطلح السابق فى ترتيب دقيق هكذا : آثار العبادة . أنوار العبودية . أقمار العبودة (٣) . وكلها مراحل تصف حالة النفس ورحلتها فى الطريق حيث يتم للصوفى اكتشاف أبعاد نفسه ومدى صلتها بالله وبخلقه فتفنى حظوظه ، ويصير ظاهره مع الخلق ، وباطنه مع الحق ، وفى هذا المقام نسمع قول مؤمنة صادقة بعد ليل حافل بالصيام والقيام « إن استغفارنا فى حاجة إلى استغفار ! » .

٣ – ويطالعك القشيرى بمصطلح من مصطلحاته الخاصة وهو (المريد) عند تفسيره لقوله تعالى « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى فلنحيينه حياة طيبة » (النحل) وعند تفسيره لقوله تعالى : « ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » (الأنعام) فيقول عند الآية الأولى : ويقال الحياة الطيبة للأولياء ألا تكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب ، ولا مطالبة ، وفرق بين من له إرادة فترفع وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئاً ، الأولون

(١) اللطائف ١ / ٩٠ .
(٣) اللطائف ١ / ١٢٤ وأنظر المحقق .
(٢) اللطائف ١ / ١٢٣ .

فآثمون بشرط العبودية، والآخرون معتقون بشرط الحرية[1] » وعند الآية الثانية يشير إلى أن الإرادة عند الصوفية لها معنى اشتقاق يختلف عنها عند علماء اللغة[2]. فالمريد — على موجب الاشتقاق من له إرادة كالعالم من له علم ؛ لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المريد فى عرف الصوفية من لا إرادة له ،فمن لم يتجرد عن إرادته لايكون مريداً[3].

٤ — كما تنوعت المصطلحات والرموز عند الصوفية ، فاقتبسوا كثيراً من علوم الفلك والكيمياء والنحو والبلاغة ليعبروا بها عن أحوال باطنية ، وخذ مثالاً واحداً من مصطلح البلاغة والنحو[4].

« واعلم أن الرفع والخفض فى الأمور الدنياوية مجاز وفى الأمور الدينية كالأخلاق والصفات الباطنة — حقيقة ، فمن زكّى نفسه وطهّر خلاله ، فهو المرفوع حقيقة ، ومن دس نفسه فى دنس خلاله ، وأسرته شهواته وهواه فهو المخذول المخفوض حقيقة » فالقشيرى يلاحظ انتقال المصطلح من المعنى اللغوى إلى الاصطلاحى ثم أخيراً إلى التصوف .

(و) فى النحو :

سبق أن تحدثنا عن نحو العبارة ونحو الإشارة أو نحو الظاهر ونحو الباطن ، وأن الأول يدرك بالعقل والثانى يدرك بالقلب ، ولهذا سماه القشيرى (نحو القلوب) وفكرة القشيرى فى مبحثه هذا جديدة مبتكرة ، فهو كما سبق يواكب بين الحقيقة والشريعة ، فالحقيقة باطن ، والشريعة ظاهر أى أن العبادات لها ظواهر وبواطن ، ولقد أطلعنا القشيرى على هذا الاتجاه فى بعض تواليفه — فى كتابه الكبير (لطائف الإشارات » تفسير لكتاب الله على مذهب أهل الباطن ، وفى كتابه (المعراج) يدرس رحلة عرفانية كان الرسول خلالها مبهورا بالكشوفات والفيوضات ،وكان طيلة الرحلة مرادا لامريدا ومحمولا لامتحملا — على طريقة أهل الباطن أيضا . كما أنه وضح فى كتابه (التحبير فى التذكير) قضية كلامية وهى دراسة الأسماء والصفات الإلهية حيث قام بنقلها من محيط علماء الكلام التقليديين

(١) اللطائف ج ٣ ص ٣٢٠ .

(٢) اللطائف ٢ / ١٧٠ .

(٣) وأنظر الرسالة القشيرية ٩٢ .

(٤) استعمله القشيرى فى كتابه التحبير فى التذكير ص ٤٦ .

إلى دوائر الصوفية – وكان ذلك على طريقة أهل الباطن أيضاً[1] فما الذى يمنع القشيرى إذن من أن يعالج النحو العربى التقليدى الذى يعنى بالإعراب ومايصيب أو اخر الكلمات من رفع ونصب وجر وجزم ، ومن تعريف وتنكير وتأخير وتقديم على طريقة أهل الباطن أيضاً ؟ وأن ينقله من محيط النحاة حيث كان فيه هامدا جامدا إلى محيط الصوفية حيث يكون فيه مذاقا وحسًّا وشفافية ، وأن يصبغ مصطلحات النحو العربى بصبغة جديدة ، وفهم روحى ملون بألوان الطوالع واللوامع ، والمجاهدات والمذاقات .

لقد كان القشيرى الصوفى أولا متسلحا بأسلحة النحو الظاهرى قبل أن يبدأ هذا العمل عارفا بدقائقه وأسراره حتى يتسنى له أن ينقل الفكرة فى النحو الظاهرى إلى مثيلتها فى النحو الباطنى ؛ فلم يجعل القشيرى من (نحو الإشارة) ثورة كما فعل ابن مضاء مع نحو العبارة بل على العكس مدّ القشيرى بينهما جسرا وفتح طريقا ، وجعل بينهما مودة ورحمة ونسباً وصهرا . كما استعمل القشيرى مصطلحات العلوم الأخرى غير النحو ليعبر بها عن جوانب الحياة الباطنية[2] .

ولم يكتف القشيرى بهذا النقل بل اعتمد على مظاهر الطبيعة وأخذ منها إشارات رائعة ليوضح بها حقائق العلم الصوفى من مجاهدات وكشوفات وأحوال ومقامات معتمدا فى ذلك على الفروق الدقيقة بين هذه الظواهر الكونية[3] .

ولقد قام القشيرى بمثل هذا الصنيع فى النحو الظاهرى حيث التقط المصطلح النحوى عند أهل الظاهر واستكنه منه نحوا صوفياً عند أهل الباطن عن طريق إشارات تتصل اتصالا وثيقاً بالمجاهدات والمقامات والكشوفات والمعارف العليا معتمدا فى ذلك على استبطان خفايا الألفاظ دون أن تحجبه قشورها الظاهرة ، ومعانيها المألوفة . وآن لنا أن نوضح ونفصل ماأجملناه معتمدين على النصوص الأمينة الموثقة من مؤلفات القشيرى أولا ، ومن إشاراته وفيوضاته على قدر ماحملته طاقاتنا ثانيا .

(١) الإمام القشيرى : سيرته – آثاره – مذهبه فى التصوف ص ٧٧ دكتور إبراهيم بسيونى .
(٢) التحبير فى التذكير ٤٦ حيث استعمل مصطلحات البلاغة فى التصوف .
(٣) أنظر أمثلة من لطائف الإشارات ٦ / ٢١٩ ، ٢٧٥ ، ٣٠٣ .

١ - في باب (الإعراب والبناء) يقدم القشيرى إشارات مركزة يمكن أن نلمح من ثناياها : أن ما يصيب أواخر الكلمات في الظاهر من رفع ونصب وجر وجزم يمكن أن يعتري القلب الإنسانى - وهو يشبه الكلمة المفردة - مايعترى الكلمة من رفع ونصب وجر وجزم أيضاً ، فهناك مطابقة بين حركات الإعراب ومايصيبها من تغير بحسب العوامل فى النحو الظاهرى وبين حركات القلب ومايحدث للإنسان ، إلا أن حركات النحو ظاهرية ، وحركات القلب روحية ؟ فلوتصورنا حالة العبد صعودا فكأنه وهو مرتبط بعلائق الدنيا متأثر بها يشبه الاسم المجرور الذى يؤثر فيه حرف الجر ، وليست حروف الجر إلا عوامل لفظية ضامرة ، فإذا انسلخ من العلاقة وتجرد منها فهو يشبه الاسم الذى تخفف من ثقل العلاقات وهى تشبه حالة (النصب) والفتحة أخف الحركات ، والنصب يقابل حالة انكماش الإرادة ، ووقوع العبد تحت تصرف الإرادة الإلهية ، وليس له من نفسه فى نفسه شيء ، وهذا أشبه بالمكملات فى النحو الظاهرى من المفاعيل وغيرها المميزة بالنصب والتى لاتقوم بذاتها ، بل هى تابعة للعمدة فى الجملة وواقعة تحت تأثيره ، فإذا ماوصل إلى التحقق صار (مرفوعا) من لدن الحق ، واكتسب منزلة عالية وهى (الرفعة) . وعلامة الرفع فى النحو الظاهرىوجودية والعبدعندالصوفية له جهود ومعاناة فى طريقه إلى المقامات ، وهذه الجهود تكون مستمرة ولا ينتقل من مقام لاحق إلا إذا استوى شرائط المقام السابق، وفى كل مرحلة ينال نصيبه من لدن الحق فإذا أصيب العبد بالسأم أو الملل أواعترضه عائق أوجذبته علاقة أصيب (بالفترة) فإن طارد دواعيها استمر وإلا أصيب (بالوقفة) ونصيبه يكون الهجر فإذا داوم الرحلة بدون (فترة) أو (وقفة) كان نصيبه (الوصل) من لدن الحق ، (والوصل) أشرف من (الوقف) .

أما الوقف فى النحو الظاهرى فهو تغير مخصوص علامته السكون ، والسكون عدم الحركة ؛ ولهذا أهمل أبو الأسود الدؤلى السكون ولم يعده من الإعراب فهو سلبي والحركة إيجابية ، والعلاقة وثيقة بين الوقفة - فى النحو الصوفى ، والوقف

فى النحو التقليدى ، أما أن (الوصل) أشرف من (الوقف) فيقرره أحد علماء العربية حيث يقول « إن الوصل مما تجرى فيه الأشياء على أصولها ، والوقف من مواضع التغيير .... وحالة الوصل أعلى رتبة من حال الوقف ، وذلك ، أن الكلام إنما وضع للفائدة ، والفائدة لا تجنى من الكلمة الواحدة ، وإنما تجنى من الجمل ومدارج القول فلذلك كانت حالة الوصل عندهم أشرف وأقوم وأعدل من حال الوقف (١) ، ويبدو من اتجاه القشيرى فى فهمه لحركات الإعراب فى نحو الظاهر أنه يرتب على العلم بها عملا وسلوكا فى الإنسان بل حياة ومصيرا ، وذلك ما نسمع صداه الآن فى أحدث النظريات المعاصرة حيث ترى أن البعد الأساسى فى كل عمل فنى بعد الألوان والظلال وأبعاد اللوحة — هو الإنسان . وهذا فرق بين الصوفية وأهل الجدل والنظر من النحاة والفلاسفة ، وخذ مثالا واحدا من قول ابن عربى : (٢)

حركات الحروف ست ومنها أظهر الله مثلها الكلمات .

هى رفع وثم نصب وخفض حركات الأحرف المعربات .

وهى فتح وثم ضم وكسر حركات الأحرف الثابتات

هذه حالة العوالم فانظر فى حياة غريبة فى موات .

فابن عربى ينظر بما فى الكون من تغير بحالات الإعراب — المتغيرة فى تعاقبها على الكلمة كما ينظر العناصر الأولى الثابتة فيه بحركات البناء التى لايعتورها التغيير فى الكلمة . وقد شبه القشيرى (المعرب) فى نحو الظاهر وهو المتغير بحسب العوامل بصاحب (التلوين) فى اصطلاح الصوفية وهو عندهم صفة أرباب الأحوال ، فما دام العبد فى الطريق فهو صاحب تلوين لأنه ينتقل من حال إلى حال فإذا وصل ثم اتصل فهو صاحب (تمكين) ودليل اتصاله أنه بالكلية عن كليته بطل (٣).

وصاحب (التمكين) فى التصوف يشبه (المبنى) فى نحو الظاهر ، وحركات البناء

---

(١) الخصائص ٢ / ٣٣١ دار الكتب .

(٢) لوحة ١٠٣ / ب روح القدس فى مناصحة النفس مصور عن جامعة أستانبول بجامعة الدول العربية رقم ٢٣٧ تصوف .

(٣) الرسالة ص ٤١

أصل ، وحركات الإعراب فرع فى نحو العبارة ؛ لأن حركات البناء لا تزول ولا تتغير عن حالها ، وحركات الإعراب تزول وتتغير ، ومالا يتغير أولى بأن يكون أصلا مما يتغير . فالمبنى أشرف من المعرب فى نحو العبارة ؛ لما سبق وفى نحو الإشارة كذلك ؛ لأن الثبات وعدم التغير فى السراء والضراء ، عند تقلب الأحوال على العارف – من علامات (التمكين) وسادات الوقت هم أهل التمكين ، يقول القشيرى فى اللطائف[1] (فالمريد مسافر بقلبه لأنه يتلون ويرتقى من درجة إلى درجة ، والعارف مقيم ومستوطن لأنه واصل متمكن ، والطريق منازل ومراحل ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس ، وإنما تقطع بالقلوب ، والمريد سالك والعارف واصل » .

٢ – ويمضى القشيرى فيرى أن (المبتدأ) متجرد عن سوابق تجعله مرتبط بعلاقة خارجية عن ذاته ، والمبتدأ فى لغة أهل الإشارة إسم (الله) وهو قائم بذاته بغض النظر عن وجود الخبر فالإسم (هو) عند الصوفية نهاية التحقق ، ولا يحتاج إلى خبر لأنه كلام تام بدون شيء آخر يتصل به أو يضمر لاستهلاكهم فى حقائق القرب واستيلاء ذكر الحق على أسرارهم فلا يسبق إلى قلوبهم غيره ، ويكتفون به عن كل بيان[2] . لكن هذا الاسم (هو) فى نحو الظاهر يحتاج إلى خبر ليتم الكلام ، وبدون الخبر يظل المبتدأ عديم المعنى ؛ لأن الخبر هو الذى يكشف عن معناه ثم ينظر القشيرى المبتدأ المتجرد عن العوامل اللفظية بالفقير الصوفى المتجرد عن كل علاقة تصده عن الله ؛ لأنه قائم مع الله بالله فهو (مرفوع) القدر عند الله لما ناله من تجرد وفقر وتوكل وصبر[3] وصدّ وهجر ، والله يحب أن يرى ثياب التجرد على الفقراء لأنها الثياب التى خلعها عليهم بنفسه حين آثروا حقه على حظوظهم ، وكذلك كان حكم المبتدإ (الرفع) فى النحو الظاهرى للتجرد عن العوامل .

٣ – ويمضى بنا القشيرى فى تأصيل فكرته حيث يلتمس نحوًا روحيا للفعل المضارع فى رفعه ونصبه وجزمه ، فإذا كان فعل الحال متجردًا عن العوامل الناصبة

---

(١) اللطائف ٣ / ٣١١ .
(٢) التحبير فى التذكير ٢٥ .
(٣) اللطائف ٦ / ٢٤٧ محقق .

والجازمة فأصله الرفع ، وهو من العلو والارتفاع فإذا دخل عليه ناصب أو جازم صرفه إلى غير الرفع ، والأمر كذلك عند أهل الطريق فإذا دخلت الشواغل والعلائق اتجاه العبد غيّرت منزلته ، كأن تنتصب النفس لترى أفعالها وتلاحظها وتشاهدها فتصيبها الدعوى والادعاء ، وذلك عند الصوفية دبيب خفى يؤثر في التوحيد ، وحديث النفس شرك عندهم ، إذ العبادة يجب أن تكون خالصة حتى من الطمع فى الآخرة ثوابًا وعقابا .

وكذلك إذا اعترضت القواطع والموانع اتجاه العبد أصيب (بالفترة) ثم (الوقفة) وهى الحبس بين المقامين لعدم استيفاء حقوق المقام الذى خرج عنه وعدم استحقاقه دخوله فى المقام الأعلى ، فالوقفة عندهم لها معنى وهى نفسها السكون والجزم فى (نحو العبارة) ، ولما كان السكون دليل الجزم ؛ فذلك يؤكد أنه عنصرهام له قيمة إيجابية فى النظام اللغوى تجعله يقارن بالحركات ؛ ولهذا أطلق عليه فى الدراسات اللغوية الحديثة الحركة الصفر[1] . فإذا سلم العبد فى النحو الباطنى من (الملاحظة) (والفتور) (والوقفة) وبادر باستشعار التحسّر تداركته الرحمة ونظر الله سبحانه وتعالى - إليه بقبول الرجعة (وارتفع) قدره عند العزيز الغفور إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح (يرفعه) ، كما يرتفع فى النحو الظاهرى - الفعل المجرد من العوامل الناصبة والجازمة ، ألا ترى أن الرفع لايطرأ إلا على الكلمات الرئيسة فى الجملة كالمبتدإ والفاعل وأشباههما فهو للعمد ، كما أن النصب والجر للفضلات .

٤ - ثم ينتقل القشيرى إلى المكملات فى الجملة فيتحدث عن الحال والتمييز . ولنبدأ بتعريف الحال فى النحو الظاهرى وهو: وصف فضلة منصوب للدلالة على هيئة ، وللحال أربع صفات : أن تكون منتقلة مشتقة نكرة وكونها نفس صاحبها فى المعنى ،أما تعريف التمييز فهو فضلة نكرة بمعنى (مِنْ) يبين إبهام اسم أو إبهام نسبة . ويلتمس القشيرى معانى روحية لما تقدم فى إشارات مركزة يُستشف منها أن العبد إذا (انتصب) استقامت (أحواله) ؛ إذ أصبح لا يرى عملا بعين العجب فهو (منتصب) مستقيم خالص لله . والعبد كذلك لخموله ، وبعده عن الشهرة (نكرة) فليس للخلق عنده اعتبار ، لأنه

(١) د . كمال بشر - مجلة المجمع ج ٢٤ .

مستقيم فى طريقه إلى الحق ، فإذا قلنا النحو الظاهرى : جاء القائد منتصرا — فصاحب الحال هو الفاعل ؛ لأنه هو الذى صنع الانتصار ، فهى متصلة — بهيئته ، أما فى النحو الإشارى فإذا قالوا (صاحب الحال) فمعناه عندهم (مرزوق الحال) لأن الحال هنا من لدن (الحق) و (الأحوال) كلها من الله فهى تأتى من عين الجود فهى مواهب ، كما أن (المقامات) تحصل ببذل المجهود فهى مكاسب ، وبهذا ينكشف النقاب عن مدى الفرق والتشابه بين النحو الظاهرى والإشارى فى الحال ، وإذا كان التمييز فى نحو الظاهر لا يكون إلا بعد تمام الكلام فكذلك فى نحو الباطن ، فلا يميز الله أحداً من عباده إلا بعد أن يتحلى بالعلم والفقه والفضائل من إيثار وإخلاص وبذل وتضحية وهى عناصر الفتوة فإذا تحلوا تمت لهم رتبة التمييز « ونَصَبهم الله لإصلاح عباده ، وميزهم فاستخلصهم لوداده » .

٥ — ثم يتجه الشيخ رضى الله تعالى عنه إلى التوابع :

فيبدأ بالبدل وأقسامه ، فالنعت ، فالعطف ، فالتوكيد وحسبى من التوابع ملحظاً واحداً بين (البدل) الظاهرى والإشارى تتضح فيها الملامح بينهما ، وذلك أن بدل البعض يمكن فصله فيما إذا قلت مثلا :

أكلت التفاحة نصفها — بمعنى أنك أكلت النصف الصالح ورميت النصف الفاسد ، وفى النحو الإشارى كذلك فقد تخلصوا من نفوسهم وعللهم ، فبدل الله سيئاتهم حسنات . أما بدل الاشتمال فلا يمكن فصله فى نحو العبارة كما إذا قلت : أعجبنى العندليب صوته ، وكذلك فى نحو الإشارة فهم لم يتمكنوا من التجرد والأعلال ، ولا يزال عندهم وارد من ثواب أو عقاب ، ولم يستطيعوا أن ينفصلوا من عللهم وأن يستبدلوا بالعبادة المغرضة عبادة خالصة ، فهم بين خوف ورجاء ، وقبض وبسط .

ثم أخيراً يمضى بنا إلى حروف الجر ، وهى آخر المطاف . يقول القشيرى عن حروف الجر : وهى تخفض الأسماء ، فلما علم المحققون أن الأشياء بالله ومن الله ، وإلى الله خفضوا أنفسهم تواضعاً لله فتعززوا بالإضافة إلى جانب الله ، أولئك الذين اصطفاهم الله لقربه وجعلهم من حزبه . . . »

والحرف فى نحو العبارة : ما جاء لمعنى فى غيره [1] ، والحروف متى اختصت بالأسماء عملت الجر ، وإنما وجب أن تعمل الجر لأن إعراب الأسماء رفع ونصب وجر ، فلما سبق الابتداء إلى الرفع فى المبتدإ والفعل إلى الرفع فى الفاعل وإلى النصب أيضًا فى المفعول ، لم يبق إلا الجر فلهذا وجب أن ، تعمل الجر [2] وسميت حروف الجر — لأنها تجر معانى الأفعال إلى الأسماء أى تضيفها وتوصلها إليها ؛ ولهذا سماها الكوفيون (حروف الإضافة) . وعلامة الجر الكسرة وما ناب عنها فى اصطلاح النحاة ، فهى تحدث عملا خطيرًا فى الاسم على الرغم من قلة حروفها وضمورها ، يؤكد هذا أن رجلا وقف على الشبلى فقال : أى صبر أشد على الصابرين فقال : الصبر فى الله عز وجل ، فقال . لا فقال : الصبر لله تعالى . قال : لا . قال : الصبر مع الله تعالى قال : لا . قال : فأى شىء ! قال : الصبر عن الله عز وجل . قال : فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه أن تتلف [3] . فحروف الجر هى التى أعطتك هذه الشحنات المملوءة بالمذاقات والمواجيد ، ولهذا أنشدوا :

والصبر (عنك) فمذموم عواقبه
والصبر (فى) سائر الأشياء محمود

وهاك القشيرى يكشف عن حقيقة حرف الجر على طريقة أهل الإشارة حيث يقول فى تفسيره (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة . . . . .) من شهد المصائب شهد نفسه لله ، وإلى الله ، ومن شاهد المبلِى علم أن ما يكون من الله فهو عبد بالله ، وشتان بين من كان لله وبين من كان بالله ، الذى كان لله فصابر واقف ، والذى هو بالله فساقط الاختيار والحكم إن أثبته ثبت ، وإن محاه انمحى ، وإن حركه تحرك ، وإن سكنه سكن ، فهو عن اختياراته فانٍ (٤) . وانظر كيف يستعمل حرف الجر مرتبطا بمراتب العبادة وهو يتحدث عن تفسير آية الصوم « من شهد الشهر صام لله ، ومن شهد خالق الشهر صام بالله ، فالصوم لله يوجب المثوبة ، والصوم بالله يوجب القربة ، الصوم لله تحقيق العبادة ، والصوم بالله تصحيح الإرادة (٥) كما تظهر شفافية القشيرى

(١) أسرار العربية لابن الأنبارى ١٢ .
(٢) أسرار العربية ٢٥٣ .
(٣) رساله القشيرى ٢٨٥ .
(٤) اللطائف ١ / ١٥٢ وأنظر ١٦٠ ، ٢٦٥ .
(٥) اللطائف ١ / ١٦٥ .

وتذوقه فى لهجة تستقطر الدمع وتستنزف الدم حيث يقول « أفمن هو (فى) روح إقبالنا (عليه) كمن هو (فى) محنة إعراضنا (عنه) ، أفمن بقى (معنا) كمن بقى (عنا) »[(١)] . فما أشبه حروف الجر هنا بذرات نور دقيقة متتابعة فى مدارات متعددة تعطى الواحدة منها الأخرى قوة دفع ، وتأخذ من سابقتها دفعة منح ، وأحيانا تجد حرف الجر النحيل أقوى من الدنيا ومن فيها ، وكأنه زلزال يهدر فى جوانب نفسك ، وذلك حين يفسّر قول الله عز وجل

(ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبّع ملتهم) .

يقول القشيرى : فأعلن التبرّى منهم ، وأظهر الخلاف معهم ، وأنصب العداوة لهم . . . وكن بنا لنا متبرّيا عمن سوانا ، واثقا بنصرتنا ، فإنك بنا ولنا[(٢)] . وأحيانا يرق حرف الجر شيئاً فشيئاً حتى يضمر ويعرى حتى يغيب عن شاهدك ، وذلك حين يفسر قوله عز وجل :

(إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض) .

يقول القشيرى « أفردت قصدى لله ، وطهرت عقدى عن غير الله ، وحفظت عهدى فى الله لله ، وخلصت وجدى بالله فإنى لله بالله ، بل محو فى الله والله الله »[(٣)] .

وإذا كان الكوفيون قد سموا حروف الجر حروف الإضافة فقد استغل القشيرى هذا المصطلح الكوفى واستكنه منه نحوا صوفياً ظهر فى تفسيره لقوله تعالى :

(لايتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين)

يقول وأولى من تسومه الهجرانَ والإعراضَ عن الكفار — نفسُك ؛ فإنها مجبولة على المجوسية حيث تقول (لى ومنى وبى)[(٤)] . وواضح أن القشيرى يرى فى حروف الإضافة على هذا النمط شركا خفياً ، وهذا معنى قولهم : التوحيد إسقاط الياءات » يعنى ياءات الإضافة إلى نفسك . والتوحيد الحق لايقتضى شعورك بما سوى الموحد ،

---

(١) أدب القشيرى ص ٣٣٢ مخطوطة بمكتبة كلية الآداب جامعة القاهرة — د إبراهيم بسيونى .
(٢) اللطائف ١ / ١٣٠ فما بعدها .
(٣) اللطائف ٢ / ١٨٠ .
(٤) اللطائف ١ / ٢٤٥ .

وقد سئل بعض المشايخ ألك رب ؟ فقال : أنا عبدٌ وليس هو مولى لى ، مَن أنا حتى أقول لى[1] ؟ .

ويلاحظ على حروف الجر فى (نحو الظاهر) أنها تتداخل وتشتجر حينا ويحل بعضها مكان بعض ، أو يقع الترادف بينها حينا آخر حتى غابت حقيقها وغامت ، ومن ذلك على سبيل المثال لاالحصر : فقد وقع التداخل بين (عن) وبين (الباء) فى قوله تعالى «وما ينطق عن الهوى» وبين معنيين من معانى (الباء) : فهى للمصاحبة فى (فسبح بحمد ربك) ويرى بعضهم أن (الباء) للاستعانة . كما يحل بعضها مكان بعض : (فعلى) تقع للتعليل (كاللام) فى « ولتكبروا الله على ماهداكم » أو بمعنى (فى) الظرفية مثل «ودخل المدينة على حين غفلة » أو بمعنى (من) مثل « وإذا اكتالوا على الناس يستوفون » . كما تكون اللام بمعنى (إلى) مثل «بأن ربك أوحى لها» أو بمعنى (على) فى الاستعلاء مثل «ويخرون للأذقان يبكون» أو بمعنى (فى) مثل « ياليتنى قدمت لحياتى[2] ».

وإذا كان النحاة يحكمون بصحة هذا كله فإن (النحو الصوفى) يرفضه ؛ لأن القشيرى كما رأيت من أمثلته التى تذوقت معانيها لم تكن حروف الجر عنده قاموسية كما كانت عند النحاة ؛ بل كانت كائنات حيةً تحمل عصارة ذهنه وتفكيره فى حقائق علم القلوب ، وبيان سبيل السلوك :

(أ) ففى قوله تعالى « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » الشورى ١١ . يرى النحو التقليدى أن (عن) بمعنى (مِنْ) مغنى اللبيب ١٣٠/١ ولكن الصوفى يرى أن (عن) فى مكانها ، والمعنى عندهم أن الحق يقبل التوبة متجاوزا عن عباده فى توبتهم لعدهم خلوصها رحمة منه بهم[3] ، ولاتستطيع (عن) إذا كانت بمعنى (مِنْ) أن تودّى هذا الملحظ الخفى .

---

(١) انظر التحبير فى التذكير – ٢٦ تحقيق د. إبراهيم بسيونى .
(٢) أنظر مغنى اللبيب لابن هشام فى هذه الحروف .
(٣) مقدمة اللطائف ١ / ٩ .

(ب) واستمع إلى القشيرى يقول (لا أذكرك إلابك ولا أعرف إلابك)

ويرى الدكتور إبراهيم بسيونى فى تعليقه على الجملة السابقة أن المنهج الصوفى يفترق عن المنهج الكلامى والفلسفى اللذين يعتمدان فى الاستدلال على الخالق بالمخلوق، أما الصوفية فيستدلون أولا بوجوده سبحانه على وجودهم، وعندهم أن الاستدلال بالأول الخالق على المحدث المخلوق أولى؛ ذلك لأن الحق مشهودهم.

يقول ابن عطاء الله السكندرى فى ذلك (متى غبت حتى تكون الأكوان شاهدة عليك؟) فحرف الباء هنا أشعر بفضل الله على العبد حين يسبق إلى معاونته كى يذكره، ويعبده ويعرف به[1].

فقد حملها القشيرى فى الفعل معان جديدة أثرت الفكر الدينى. فحرف الجر فى النحو الصوفى على تحوله خطير؛ إذ يعبر عن مذاقات ومواجيد.

وإذا كان حرف الجر عند أهل العبارة يجر الاسم ويترك فيه أثرا ماديا وهو الجر فإنه عند أهل الإشارة أعمق أثرا وأوسع نشاطاً، وأرق حسًا، وأشهى مذاقا فهو يجرّ العبد من نفسه إلى مرحلة (النصب) ثم إلى مرحلة (الرفع) أو ليس من أسمائه تعالى «الرافع الخافض» ثم حروف الخفض (أحوال) من قبيل (الخوف) الذى يرفع بعده العبد إلى (الرجاء) و(القبض) الذى يرفع منه إلى (البسط) و(الحجب) الذى يرفع منه إلى (الكشف) ثم ألا تجد معى بعد هذا الطواف والمسير أن القشيرى كان يجرد حرف الجر من غلافه وغلالته حتى يستشف معدنه، ويلمس سرّه، ويربطه بالحياة الروحية الصافية، وقد كان القشيرى نور الله مضجعه، وبرد مثواه ومترعه، يعمل نفس هذا العمل مع بدنه ونفسه وروحه!!

هذا وقد كان للشيخ اتجاهات إعرابية حملت قيما إشارية فى كتابه اللطائف أذكر منها على سبيل المثال[2]:

١ـ ماجاء فى اللطائف ٢/٣٣٢ عند شرحه لقوله عز وجل «يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين» (الأنفال ٦٤) يقول أحسن التأويلات: مَنْ فى محل

(١) الإمام القشيرى ٣٣٢ د. إبراهيم بسيونى مخطوطة بمكتبة جامعه القاهرة.

(٢) أنظر نماذج مختلفة فى المرجع السابق.

النصب ؛ أى : ومَنْ اتبعك من المؤمنين يكفيهم الله » على أن العربية تجيز وجها آخر تكون فيه (مَنْ) فى محل رفع أى : كفاك وكفاك المؤمنون (انظر الكشاف) ولكن ملحظ القشيرى فى الإعراب يرجع كل شىء إلى الله، فالخلق خلقه، والحكم حكمه، وذلك مذهبه.

٢ ـ ماورد فى اللطائف ٢/١٥٤ « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » (الأنعام) آية : ١ « فالذى إشارة و « خلق السموات والأرض » عبارة. استقلت الأسرار بسماع «الذى» لتحققها بوجوده، ودوامها لشهوده، واحتاجت القلوب عند سماع «الذى» إلى سماع الصلة ؛ لأن «الذى» من الأسماء الموصولة بكون القلوب تحت ستر الغيب فقال (خلق السموات والأرض). وانظر اللطائف فى أماكن متفرقة تجد القشيرى يسخّر الجانب الإعرابى ليخدم مذهبه فى التصوف : ٥/٠٧٧.

ومادام حديثنا فى النحو عند القشيرى ـ فهل كان القشيرى يميل إلى مذهب معيّن فيه ؟ الواضح أن القشيرى كان يستعمل مصطلح البصريين فى (نحو القلوب) وبجانب هذا رأيته فى نحو القلوب = يسمى حروف الجر = حروف (الإضافة) وذلك مصطلح كوفى، وإنما سميت حروف الجر حروف الإضافة لأنها تضيف الفعل إلى الاسم أى : توصله إليه[1]. كما سمّى الضمير (بالكناية) وذلك فى قوله تعالى « ولا يحيطون به علما[2] ». وفى مرة أخرى عند قوله تعالى «ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله[3]». وهذا اصطلاح كوفى أيضاً[4] وإنما عبر عن الضمير بالمكنى ؛ لأنه يكنى به أى (يرمزبه) عن الظاهر اختصاراً ؛ لأن اللبس مأمون مع الضمير. والغرض منه : الدلالة على المراد منه مع الاختصار كما استعمل حرف (الصلة) وذلك عن الحديث فى قوله تعالى «ليس كمثله شىء» الشورى آية : ١١. فقال : والكاف فى ليس (كمثله) صلة، أى : ليس مثله[5]، وهذا مصطلح كوفى يقابله (حروف الزيادة)

(١) الهمع ٢ / ١٩.
(٢) اللطائف ٤ / ١٥٠.
(٣) اللطائف ٥ / ٣٥٣.
(٤) شرح المفصل لابن يعيش ٣ / ٨٤.
(٥) اللطائف ٥ / ٣٤٥.

عند البصريين[1] . والقشيرى كعادته يستعمل دقائق اللغة ورقائقها - تورعاً من أن ينسب (الزيادة) إلى الكتاب المقدس كما فعل غيره ، ويظهر أن الشيخ لم يملْ إلى مذهب بعينه فى النحو البصرى أو الكوفى بل كان يمرق سريعاً ، فلم يلتفت إلى خلافات النحاة من بصريين وكوفيين فى إشارته (النحوية) ولم يقف ليناقش أصحاب كل مذهب أو مدرسة ولا ليناقش غيرهم من أصحاب الفرق الإسلامية ، فالشيخ كان يمرّ على عجل فى كل ذلك ، يؤكد هذا ماجاء عن القشيرى فى (نحو القلوب) «قال أهل العبارة : الاسم مشتق من السمو ، أو من السمة على الخلاف» لكنه كان طويل النفس مسترسل الفكرة حين يحرك مثل هذا النص من أفقه الضيق ، ومكانه الجامد إلى الرحب الفسيح ، حيث السلوك والتخلق ، والاستشفاف والتذوق ومن هذا المنطلق الأخير وحده نذر عمره ، وكرّس جهوده ، استمع إليه يقول[2] : «الاسم مشتق من السمو والسمة فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يَتَّسِم بظاهره بأنواع المجاهدات، ويسمو بهمته إلى محالِّ المشاهدات ، فمن عَدِم سمة المعاملات على ظاهره ، وفَقَد سموّ الهمة للمواصلات بسرائره ، لم يجد لطائف الذكر عند قالته ، ولا كرائم القرب فى صفاء حالته .

(ز) ويظهر أن القشيرى فهم من النحو مايشمل النحو والصرف فتكلم فى (نحو القلوب) على مسائل صرفية مثل :

١ - الصحيح والمعتل من الأسماء .

٢ - والاشتقاق فى الإسم . وفكرته فى المسائل الصرفية كفكرته فى مسائل النحو تقوم على المطابقة فى أن مايصيب الكلمة من تغيرات يحدث مثيلها للعبد . فالصحيح من الأسماء عند أهل العبارة : ماسلم من حروف العلة وهى : الألف والواو والياء ، وهى أصوات تقع فى مهب التغيير والتبديل والحذف فى النحو الظاهرى . والصوفى يرى أن مجىء حرف العلة فى آخر الكلمة أوفى جوفها (فى القلب) تنظير بأنه يجب أن يتجرد العبد من العلل فى وسط الطريق ونهايته ، والصوفى يرى أن النفس محل المعلولات وأوصاف الضعف البشرى ، والقلب محل المحمودات، وبقاءُ الإنسان بالعلل علامة ضعف، والعلل باقية مع العبد طالما كان فى حالة (التلوين) فإذا تجرد من العلل وأصبح فانياً عن حظوظه - كان فى حالة (التمكين)

(١) شرح المفصل ٨ / ١٢٨ . (٢) فى اللطائف ١ / ٦٤ .

وسلم اسمه من ألف الإلباس وواو الوسواس وياء الياس وحق له الإعراب وهو البيان ثم الكشف والعيان . والعلل تلازم الإنسان حتى مرحلة السر ولايخلو من العلل إلا عين السرّ أو سرّ السرّ وهى أمانة للحق لدى الخلق كى يشاهدوه بها ؛ ومن أجل هذه (العلل) منع الاسم من الصرف وهو (التنوين) والأصل فى الاسم : أن يلحقه التنوين ليدل على تمكنه فى الإسمية فإذا وجد فى الاسم (علتان) تدلان على الفرعية ، وكانت واحدة ترجع إلى اللفظ والأخرى ترجع إلى المعنى ، أو واحدة تقوم مقامها ، فإن الاسم حينئذ يشبه الفعل وشبهه بالفعل يضعف قوته ويصبح ثقيلا مثله فيأخذ حكمه وهو امتناع التنوين ؛ لارتكابه العلل ظاهرا وباطنا (والعلة) مرض فى العبد ، ونقص فى الكلمة الممنوعة من الصرف : فالوصف : دعوى النفس بالظهور والغرور ، والصوفى يستر نفسه . والتأنيث : إشارة إلى أن الطريق الصوفى شاق ، فإن تهاونت فيه فأنت ضعيف (كالأنثى) لا تتحمل المجاهدات . (والعدل) فى نحو العبارة : اشتقاق

اسم من اسم عن طريق التغيير له كاشتقاق : عمر من عامر ، والمشتق فرع عن المشتق منه ، والعدل يشمل التغيير والتحويل والعدول عن الأصل . وفى نحو الإشارة : عدول عن الطريق القويم ، والتنظير بينهما قائم . (ووزن الفعل) كأن تجعل لعملك قيمة ووزنا ، وهذا نوع من (دعوى النفس) والإعجاب بما تفعل ، والصوفى ملتزم بإسقاط التدبير وإثبات التقدير ، والمعول عليه فضل الله ، ولا قيمة لعمل العبدولا (وزن لفعله)[1] بجانب فضل الله ، وكل عمل للعبد مرتبط بالعناية الإلٓهية لابالمجهود الإنسانى ، حتى أعمال الإنسان الصالحة لاتدخله الجنة وليست فى نظر الصوفية إلا كالخيول الراكضة فوق ثبج الماء لاحول لها ولاطول ، ولانفع فيها ولاقدرة . ويعرض القشيرى لاشتقاق (الاسم) ففى النحو الظاهرى نسمع خلافا بين النحو بين . فيرى البصريون أنه مشتق من (السمو) ؛ لأنه سما على مسماه ، وعلا على ماتحته من معناه ، أو أنه قد (سما) على الفعل والحرف[2] . ويرى الكوفيون أنه من السمة) فكأنه

---

(١) وصدق الرسول (ص) حين قال « مامنكم من أحد ينجيه عمله قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته » . وقوله (ص) : « لن يدخل أحدكم عمله الجنة . . . . »

(٢) أسرار العربية لابن الأنبارى ص ٤ ط . دمشق .

سمةٌ على المسمى يعرف بها . كما نرى نموذجا من هذا الخلاف بين رجال الفكر الدينى حيث نجد أهل السنة وهم فى اشتقاقه كالبصيريين ، وأما المعتزلة فهم كالكوفيين ، والفرق بين المذهبين : أن أهل الاعتزال ينكرون الصفات ، وأهل السنة يثبتونها ، كما اشتد الجدل بينهم لأنهم نقلوا هذه المشكلة إلى الحديث عن الأسماء والصفات الإلٓهية ، كما نرى وجها آخر لهذا الجدل بين دوائر النحاة المتمثل فى البصريين والكوفيين[1] . ولكن القشيرى الصوفى أخرج قضية اشتقاق الاسم والخلاف فيه من الجانب الصرفى التقليدى ، والجانب الجدلى الكلامى إلى الجانب الصوفى الذى يهتم بالسلوك والتخلق ، والتطبيق والعمل ، ومن آداب من عرف اسماً من أسمائه أن يتأدب بما يعرف ، وأن يطبق على نفسه أولاً سلوكا بمقتضى ذلك الاسم .

وثانياً : أن يكون ذكر هذه الصفة حافزا على التشبيه بالصفات الإلٓهية فى حدود الطاقة الإنسانية . استمع إلى هذا المعنى من القشيرى حيث يقول : «فمن قال إنه مشتق من (السمو) فهو اسمٌ مَنْ ذكره سمت رتبته ، ومن عرفه سمت حالته ، ومن صحبه سمت همته .

ومن قال إنه من (السمة) فهو اسمٌ مَنْ قصده وسم بسمة العبادة ، ومن صحبه وسم بسمة الإرادة ، ومن أحبه وسم بسمة الخواص ، ومن عرفه وسم بسمة الاختصاص .

أو يقول : اسمٌ من واصله (سما) عنــده عن الأوهام[2] قدرُه (سبحانه) ومن فاصله وسم بكيّ الفرقة قلبُـــه[3] .

كما يعرض القشيرى لتصغير الثلاثى فى (نحو اللسان) بأنه : اسم ضم أوله وفتح ثانيه مع زيادة ياء ثالثة كقولك فى رجل : رجيل ، وحجر : حجير . كذلك إذا أراد الحق تحقير العبد زاده شغلا يتوهمه الناس نعمة وفضلا ورفعة ، ولكنَّ هذه الزيادة إذلال له ، ومنقصة بحاله .

وليس الأمر مقصوراً على (الاسم) فى الجانب الصرفى فى نحو القلوب ، بل شاركه (الفعل) أيضاً ، فإذا كان الاسم كما تقدم ينقسم إلى صحيح ومعتل ، فكذلك الفعل : صحيح ومعتل . وكذلك (أفعال) المكلفين على قسمين : صحيح ومعتل ، وكما أن الصحيح من الأفعال ما سلم من حروف العلة ، فالصحيح

---

(١) أنظر نموذجاً من هذا الجدل فى (أسرار العربية ص ٥ لابن الأنبارى) .

(٢) إعلم أن ما يصوره وهمك وظنك فالله بخلاف ذلك . (٣) اللطائف ٢ / ٥

من (أفعال) العباد ما سلم من صنوف العلة ، وإذا كانت حروف العلة فى نحو (اللسان) ثلاثة : الواو والياء والألف ، فصنوف العلة فى نحو (الجَنان) ثلاثة أيضاً : الرياء والإعجاب والمساكنة ، وبعض صنوف العلة ألطف من بعض ، وبعضها أجلى من بعض ، ومن الأفعال ما هو (أجوف) وهو الذى حشوه حرف علة ، وكذلك من أفعال العبد ما هو أجوف وهو الذى داخله ذلّة ، ومن الأفعال ما هو (ناقص) وهو الذى يعقبه آفة ؛ فإن قبول القرب موقوف على وفاء العواقب ومن الأفعال ما هو (لفيف) وهو الذى اجتمع فيه حرفان من حروف إما مفترقين أو مقترنين ، كذلك من الأفعال ما يتوالى على صاحبها الآفات فيعتريه : الرياءُ ، ويلحقه الإعجاب (نحو القلوب (بتصرف) ورقة ٦٣ ميكروفيلم ٧٤٣٤) . ويؤكد ما سبق ما يقوله القشيرى فى اللطائف ٤/٢١٨ عند تفسير قول الحق عز وجل : « إن الله لا يحبّ كل خوّان كفور » . الخيانة على أقسام : خيانة فى الأموال تفصيلها فى المسائل الشرعية ، وخيانة فى الأعمال ، وخيانة فى الأحوال . فخيانة الأعمال : بالرياء والتصنُّع ، وخيانة الأحوال : بالملاحظة والإعجاب والمساكنة ، وشرها : الإعجاب ثم المساكنة ، وأخفاها الملاحظة .

والقشيرى كما ترى يلح دائماً على التحذير والتخلص من هذه الآفات فى الطريق الصوفى

ثم أما بعد : فإنى أرى بعد هذه الرحلة الروحية فى آثار الشيخ وشواهده أن الرجل كان موفّقاً فى نقل مصطلح النحو العربى إلى محيط التصوف الإسلامى وأطلعنا من خلال ذلك على فلسفة روحية قوامها القواعد النحوية ، وأنه كان رائداً فى هذا العمل وذاك النقل من بيئة إلى بيئة ، كما يؤكد هذا العمل مرة أخرى مدى الترابط فى عالم المصطلحات ؛ مما يساعد فى المستقبل إن شاء الله على دراسة مراحل هذا الانتقال وتطوره ؛ ويحدد أخيراً إشارات الأخذ والعطاء ، والتأثير والتأثر ، ورحلتنا معك – عزيزى القارئ – فى اللقاء القادم مع تحقيق كتاب (« نحو » القلوب) للاستاذ الإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى .

احمد علم الدين الجندى